(١)

نحن نصنع المتاعب ثم نغرق فيها*

إبراهيم حسن الخشاب موظف مصرى عادى ، واحد من مئات الألوف الذين يملئون مكاتب إداراتنا، ها هو ذا مستقر على كرسيه كأنه زكيبة لها رأس وفم وعينان. عندما دخلت الحجرة كان يتكلم من فم ضخم. كان يشكو الدنيا وما فيها ، كان يشكو من الأسعار والمرتبات والمواصلات، ويلعن الدنيا وما فيها ، لأنه يعتقد – شأنه فى ذلك شأن تسعين فى المائة من موظفينا – أنه ضحية بريئة لسوء الأحوال، إنه يتحدث بلسان مصلح اجتماعى، إنه يعتقد أنه مظلوم بل مطحون، إن وظيفته فى هذه الإدارة أنه «مراقب»، ولا أحد يدرى ماذا يراقب؟ لأن الذى يعرفه إخوانه جميعا أن عمله الرئيسى فى هذا المكتب هو الحضور فى الصباح والشكوى إلى ساعة انتهاء العمل.

ذهبت أبحث عن تقرير أرسلته وزارة الخارجية إلى الوزارة التى يعمل فيها ، والتقرير خاص بمؤتمر نظمه المجلس الأوروبى لدراسة ما يمكن أن يقدمه من المعونات الثقافية لمنطقة الشرق الأوسط التى هى مركز عتيد من مراكز التخلف على هذا الكوكب، وكنت من المشاركين فى ذلك المؤتمر، وكلفونى بأن أتولى الإشراف على إنشاء مركز لتنظيم المعونات التى ستخص مصر من الأموال التى رصدوها، فذهبت إلى الخارجية المصرية، فوجدت الناس هناك قد قاموا بالواجب على أحسن وجه. كتبوا تقريرًا وافيًا عن المؤتمر ، وأرسلوه إلى إدارة صاحبنا، ولهذا ذهبت إليه، وفى ظنى أن المسألة ستتم فى دقائق.

عندما اقتربت من مكتبه تبينت أنه يأكل سندويتشا ، فها هى ذى ورقة الجريدة مفتوحة على المكتب وعليها بقية الساندويتش ، وشىء على ورقة

* نشرت هذه المقالة فى ١٢ أكتوبر ١٩٨٢م.

بيضاء.. أظن أنه كـان مخللا. مضى يكمل كلامه ويأكل. ألقيت عليه التحية فلم يرد ، لا.. ولا هو دعاني للجلوس ، فإن الناس لا يجلسون في حضرة الملوك. استأذنته في الجلوس ، وجلست أنتظر أن يفرغ لي. كانت في يده آخر لقمة من الشطيرة وهو يتأملها – دون أن يتوقف عن الكلام – قبل أن يودعها مقرها الأخير في فم التمساح. هـذا أول تمساح ذي شارب أراه في حياتي. فرغ من الشطيرة وما بقي من المخلل ، ثم رفع إلى فمه كوب ماء يزيح به بقية الشطيرة إلى الهاوية. هنا فقط تنبه لوجودي. نظر إلى من وراء نظارة علاها التراب. ولكي أكسر الجليد بيني وبينه حييته مرة أخرى. رد بعبارة مقتضبة تحمل كل معاني القرف والملل والاحتقار ، ثم سألني عن البلوى التي حدفتني إليه ، وأقص عليه الحكاية في تفصيل. كلامي يحمل كل معاني الاحترام ، لأنني أعرف أنني هنا في حضرة ملك عظيم. جلالة الملك إبراهيم الأول يستمع إلى في ضيق بالغ ، ثم يقول: ولكننا لم نتلق الخطاب الذي تتحدث عنه من وزارة الخارجية.

قلت في أدب: بل تلقيتموه!

قال: إذا كنت أنا أقول لك إنني لم أر هذا الخطاب ، فكيف تقول إنه وصل!

– لأنني قبل أن آتيك قابلت دياب بك مدير الإدارة ، وطلبنا الملف ووجدنا الخطاب فيه. وسيادته هو الذي قال لي إنك أنت الموظف المسئول، وسيادتك ستعالج الموضوع معي.

– وحضرتك طبعًا تظن أن دياب بك مدير الإدارة رئيسي ، وأنه – بهذه الصفة – يستطيع أن يصدر إليّ تعليمات؟

– لم يقل الرجل شيئًا عن تعليمات ، وإنما أنا قصدته لأعرف إلى من أتجه هنا ، وهو الذي هداني إليك ، وقد أثنى عليك كثيرًا.

– منذ متى يثني عليّ سيادة دياب بك؟

– لا أدري ، ولكني أعتقد أنه دائم الثناء على موظف ممتاز مثلك..

– موظف ممتاز؟ ولهذا يوقف ترقيتي من ثلاث سنوات؟

– يا سيدى أنا لا دخل لى فى ذلك ، إنما أنا رجل لى مصلحة عندك وأرجو أن تقضيها ، سيادة دياب بك سيرسل لك الملف الآن.

– وسيادته يعتقد أنه إذا أرسل إلىَّ ملفًا فعلىَّ أن أبادر بالعمل؟ شوف يا حضرة: إننى لا أخشى مدير الإدارة أو أحدًا فى هذه الوزارة..

– المسألة ليست مسألة خشية أو خوف. إنها مسألة نظام. ومادامت هناك إدارة عامة فلابد لها من مدير. هذا شىء طبيعى ، والرجل لم يقل شيئا عن تعليمات أو طاعة أو خوف ، إنه أحالنى إلى الرجل المختص.

وفى أثناء ذلك وصل الملف ، وتناوله صاحبنا ومضى يتصفح ما فيه ، وعاونته حتى وجد الخطاب ، فنظر فيه طويلاً، ثم قال:

– حسنا تمر علينا بعد أسبوع أو عشرة أيام، حتى أكون قد درست الموضوع.

– سيدى إننى هنا لنعالج الموضوع معًا. لقد حضرت ذلك المؤتمر ، وقد كلفونى بالعمل على سرعة الرد. ونحن الاثنين نستطيع أن نقوم بالواجب فى ربع ساعة. وسيادة دياب بك كان معى فى هذا المؤتمر. وقد أرسلنى إليك لأنك الموظف المختص. وبعد أن أنتهى من دراسة الموضوع معك وآخذ رأيك، سأعود إلى دياب بك.

– إذن تعود إلىَّ بعد عشرة أيام كما قلت لك.

– لماذا يا إبراهيم بك؟ نحن الاثنين نستطيع أن نقرأ التقرير معًا ، ونناقشه ونتفق على رأى تكتبه سيادتك فى تقرير صغير أحمله بنفسى إلى السيد المدير ، لأن الموضوع عاجل. إنهم يريدون أن يكون مركز تنفيذ المشروع كله فى مصر. والتأخير فى الرد يضر بمصالح البلد.

– قلت لك بعد عشرة أيام! إن الدنيا لن تطير يا حضرة ، وأنا لا أستطيع أن أهلك نفسى فى سبيل بلد لا آخذ منه إلا البلاوى.

ثم تركنى ومضى إلى الحمام فى الغالب. أحسست أننى لن أخرج من هذا الرجل العقيم بشىء فأخذت الملف وصعدت إلى دياب بك مدير الإدارة، فقرأنا الخطاب معا ، وأعددنا الرد وكتبناه على الآلة الكاتبة ،

وخرجت به بعد ساعة موقعًا جاهزًا ، لكى أحمله إلى الخارجية ، وتم الأمر على ما نحب: أقيم المركز فى مصر وحصلت مصر على ثمانى منح.

وكنت أسير بسيارتى فى شارع قصر العينى بعد أربع سنوات ، فلمحت إبراهيم أفندى حسن الخشاب واقفًا فى الشمس ينتظر الأتوبيس فى الغالب، بدا تعيسًا وأشد غلبا مما كان من سنوات ، فتوقفت أمامه وناديته ، فأقبل فدعوته إلى الركوب معى لأوصله إلى حيث يريد ، جلس إلى جوارى ، وانطلقت به إلى بيته فى حى مصر القديمة ، وقصصت عليه ما تم فى الموضوع ، وقلت له:

– تعرف يا إبراهيم أفندى لو أنك يومها عاملتنى بإنسانية ووطنية لكانوا قد عينوك مديرا لهذا المركز ، يومها كنت فعلا أريد أن أقدم خدمة لبلدى، وأتيتك بصدر منشرح أرجو منك العون، فعاملتنى معاملة الكلاب، لماذا يا إبراهيم أفندى؟ لماذا تعذب الناس وأنت نفسك معذب؟ أتيتك يومها متعبا ومرهقا ، فلم تكن لدى إذ ذاك سيارة ، بعد أن خرجت من عندك لم أجد تكسيا ، كانت أزمة التكسيات على أشدها ، فسرت على قدمى تحت شمس حارقة فى الساعة الواحدة بعد الظهر ، ولكن مدير الإدارة فى الخارجية كان إنسانا محترما جدا. أنهى الموضوع معى فى نفس اليوم، ووضعنا مشروع المركز باللغة الإنجليزية ، وأرسلناه فى اليوم التالى إلى بروكسل ، ووافقوا عليه ، ونفس وزارة الخارجية رشحتنى مديرا للمركز، وأعطونى راتبا ممتازا اشتريت منه هذه السيارة ، وقمت بعمل أعتقد أنه جيد، وقبل أن أترك المركز لأتفرغ لعملى فى الجامعة كنا قد دربنا أكثر من عشرين شابا مصريا على أعمال التخطيط التعليمى الفنى ، والمركز الأوروبى أهدى كل شاب آلة الكومبيوتر التى تدرب عليها ، وكلهم يعملون اليوم فى مراكز محترمة داخل مصر وخارجها ، وكل ذلك لأننى أحب هذا البلد وأخدمه بكل ما أستطيع ، وعندما وقفت بالسيارة قرب بيته فى أول شارع عتيق فقير ، نزل من السيارة وقال:

– هو بلدنا هكذا. كله ظلم فى ظلم ، أتظن أن حالى كان قد تغير إذا أنا كنت ساعدتك بكتابة تقرير؟ لا يا أستاذ. هـذا بلـد لا يصلـح فيـه شـىء ، وسعد باشا قال: مافيش فايدة..

– لا يا إبراهيم أفندى ، سعد زغلول لم يقل فى حياته هذه العبارة. لـو قالها لما كان قد أصبح سعد زغلول ، الخـائبون هـم الذيـن يقولـون ذلـك ، ولهذا فهم خائبون ، وأنا أقول لك قبل أن نفترق: ليه يا إبراهيـم أفنـدى؟ إننى شريك فى المتاعب ، ولو وضعت يدك فى يدى لخفـت متاعبنـا علـى الأقل.. حاول أن تغير موقفك من وطنك ومواطنيك ، وتأكد أن حـالك كلـه سيتغير.

□□□

وفى إحدى زياراتى لفرانكفورت نزلت فندقا جميلا تعودت الـنزول فيـه عندما أقصد هذه المدينة الجميلة ، وفى ذات صباح كنت على مائدة الطعام أتناول الإفطار ، عندما اقترب منـى رجـل عرفـت مـن ملامـح وجهـه أنـه مصرى ، اسـتأذن وجلـس ، ثـم قـال بعـد التحيـة: إننـى مـع اثنـين مـن أصحابى موجودون هنا لشراء مواسير وموتورات لرفع المياه لعمارة بنيناها ، وقد عرفنا من هيئتك أنك مصرى مثلنـا ، ولاحظنـا أنـك تجيـد الألمانيـة ، فتساءلنا: إن كنت تستطيع معاونتنا بالترجمة بيننـا وبـين شـركة نريـد أن نشترى منها؟ وسندفع لك أتعابك طبعا.

– الترجمة فقط ؟

– أجل ولمدة ساعتين وربما ثلاث على الأكثر.

– هذا الصباح غير ممكن ، لكن بعد الظهر من الثانيـة إلى الخامسـة أنـا تحت تصرفكم.

– حسنا ، وأين نلقاك لنذهب معا ؟

– هنا ، فإننى سأتغدى هنا..

– شكرا ، لا ندرى كيف نشكرك على تضحيتك بوقتك.

– إننى لن أضحى بوقتى ، إننى سأبيعه ، فأنا أريد أن أشترى آلة كاتبة وبعض الكتب ، أى إيراد سينفعنى ، هل أستطيع أن أسأل كم ستدفعون ؟

– أنت تأمر ونحن طوع أمرك.

– مائة وخمسون ماركا عن الساعات الثلاث.

فقال واحد من الثلاثة ، وكان شابا مفرطا فى السمنة: بشرط..

قلت: لا تشترط علىَّ شيئا أرجوك ، فإننى لست فى حاجة إلى عملك هذا ولا أريده ، إنما قبلت لأنكم قصدتمونى.. إنما أنا الذى أشترط.

– وماذا تشترط ؟

– أن آخذ المائة والخمسين ماركا قبل البدء.

وقال كبيرهم: بسيطة نعطيك المبلغ قبل بدء العمل.

وفى الساعة الثانية بعد الظهر كنا فى المصنع الذى يريدون عقد الصفقة معه. وكان مندوب المصنع الذى جلسنا إليه رجلا هادئ الطبع أجش الصوت ، فتحدث عن أربعة أصناف من المواسير يصنعونها ، وشرح شرحا مستفيضا ، وأطلعهم على عينات مما يعرض ، فقال المصرى السمين: لقد سمعنا أن لديكم كمية من المواسير المصنوعة من القصدير والنحاس تريدون التخلص منها.

قال الرجل: أجل ، ولكن هذه لا تصلح للاستعمال فى بلد حار رطب مثل بلدكم ، لقد وقعنا فى خطأ عند تركيب المزيج الذى صنعت منه ، وبعنا منها ثلاث كميات، ثم اشتكى كل العملاء، ووجدناهم على حق، فاستردنا ما بعنا وأعدنا إلى الناس ما دفعوا ، وقررنا إتلاف كل الكمية التى صنعناها.

وقال الرجل السمين: ولماذا تتلفونها؟ نحن نشتريها.

ونهض الرجل ، فأتى بعينة منها ، وشرح لنا سبب عدم صلاحيتها ، وقال: لا نستطيع أن نبيع منها شيئا ، إنها سيئة حقا ، ووجودها فى السوق يضر بسمعة شركتنا.

– نحن نستطيع علاجها. اشطبوا اسمكم من عليها ونحن نشتريها.

فقال الرجل فى صوت حازم: إن شركة شتاين وجارتنر شركة عالمية ، وسمعتنا فى الأسواق العالمية كبيرة ، ومن المستحيل أن نضر بسمعة شركتنا بسبب كمية من المواسير وقعت فى إنتاجها أخطاء فنية ، هذه المواسير لا تتحمل العمل سنتين ، وبيعها غش ، فما سر إصراركم عليها؟

– لأننا سنتمكن من إصلاحها.

– لو كان من الممكن إصلاحها لقمنا نحن بذلك ، ولا يمكن أن تكون لديكم المعامل التى لدينا ، فدعونا من الكلام فيما لا فائدة فيه.

وعاد السمين يقول لى: قل له إننا نريد أن نشتريها لأننا نبنى مساكن رخيصة لذوى الدخل المحدود ، والناس عندنا فى أشد الحاجة إلى المساكن.

قال المندوب الألمانى: هذا غش أيها السادة:

وقال السمين لى: قل له أن يتساهل ، وسنكافئه بيننا وبينه!

فقلت له: سيدى أنا لا أستطيع أن أتوسط فى مثل هذا الغش ، كيف تصرون هذا الإصرار على غش بلدكم؟ الرجل يفهم ما يقول ، وقد نصحكم، وعيب عليكم أن تجتهدوا هذا الاجتهاد فى الغش.

فقال واحد من الثلاثة: اسمع يا أخانا ، لقد استأجرناك لتخدمنا ، وأنت لن تعلمنا شغلنا ، نحن مقاولون كبار فى البلد ، ومهمتك تقتصر على الترجمة ، قل له ما قلت لك.

– لا يمكن أن أشترك فى غش بلدى ، إن هذا الذى تعملونه عار عليكم، وكيف تكونون مقاولين كبارا وتعاملون الناس بالغش؟ لقد قال لكم

الرجل إن تلك المواسير لا تتحمل العمل سنتين، وإنه لا سبيل لإصلاحها، فكيف تريدون شراءها؟.

– ليس هذا شأنك. إنها أموالنا ونحن أحرار فيها.

– بل هو شأنى. والأموال ليست أموالكم ، إنها أموال الناس ، إن الناس فى بلدنا مساكين ، والواحد منهم يعطيكم تحويشة العمر ليحصل على مسكن ، فيكون جزاؤه أن تغشوه؟

ثم قلت لمندوب الشركة: إننى لست من هؤلاء السادة. إننى مجرد مترجم، وأعتقد أن مهمتى قد انتهت. ثم قلت للثلاثة: إننى قلت ذلك للرجل.

فقال السمين: لو كنا نعرف أنك خازوق بهذا الشكل لما استعنا بك، ها أنت ذا قد ضيعت من يدنا الصفقة.

– مع الأسف أنا لم أضيعها. الرجل نفسه قال لكم إن شركته لا يمكن أن تشارك فى الغش ، وإذا كانت هذه هى طريقتكم فى العمل فبئس المقاولون أنتم.

وانصرفنا، عربة الشركة حملتنا إلى الفندق، فى الطريق أعدت إليهم نقودهم، أحس السمين بأن أمرهم قد انكشف لى، فقال كلاما أحسست منه أنه يسترضينى، ثم دعانى إلى فنجان قهوة فى الفندق. وقال واحد من الثلاثة وهم يخاطبونه بلقب الباشمهندس: يظهر يا حضرة أنك لا تعيش فى الدنيا، إن كل عمليات المقاولات وغير المقاولات فى البلد تسير على هذه الوتيرة ، المهم الآن هو الفلوس، لقد بنينا إلى الآن ثلاثة مجمعات سكنية ومركزنا فى السوق حديد. ونحن أحسن من غيرنا، والمسألة ليست مسألة غش، إنها مسألة ثمن، الناس فى حاجة إلى مساكن رخيصة، ونحن نقدم لهم المساكن الرخيصة.

– هذه يا سيدى ليست مساكن رخيصة، إنها أغلى مساكن فى الدنيا، إننا أيها السادة بلد محترم، وشعبنا كان مشهورا بأخلاقياته، فجئتم أنتم فأفسدتم الدنيا بحمى الفلوس، وأنتم لا تقنعون إلا بربح ٥٠٠ أو٦٠٠ فى

المائة، فقولوا لى والله ماذا تعملون بالفلوس الحرام؟ ما قيمة ملايين الحرام؟.

لقد أتعستمونا وأتعستم أنفسكم بهذا الطراز الحقير من المعاملات ، إن استغلال حاجة المحتاج وغشه فى ذاته جريمة ، ومن يقترفها يخسر نفسه ودينه ، أنتم كما تقول مقاولون كبار ، واسمكم كبير فى السوق ، فما قيمة الاسم الكبير إذا كان اسما غير نظيف؟ إن الإنسان مهما فعل فهو لن يأخذ من هذه الدنيا إلا الطعام والسكن والملبس ، فما هذه الحمى التى اجتاحتكم فأصبحتم لا تفكرون إلا فى الحصول على المال دون نظر إلى حلال أو حرام؟ معذرة أيها الأخوة فقد ملأتم نفسى غما بما فعلتموه فى المصنع الآن.

□□□

إننا نصنع التعاسة بأيدينا ثم نشكو منها ، إننا شعب عاجز لا نحسن إلا الشكوى ، لقد رأيت فى أحد برامج التليفزيون أهل قرية يشكون من أمر كانوا يستطيعون علاجه لو كان فيهم أيسر الحزم ، إن صناديق الكهرباء فى القرية بدون أقفال ، هذه هى طريقة الحكومة فى العمل ، ولكن الحكومة عندنا ليست قدوة ، نتيجة لذلك مات عدد من الأطفال مصعوقين بالكهرباء ، ورجل طويل عريض أراد أن يسرق تيار الكهرباء، فأتى بكرسى خشب وقف عليه ليحصن نفسه من التيار ، ومد يده فأخذ سلكا، وأراد أن يربط فيه سلكا يسرق به التيار، فصعق فى الحال، أهل القرية فى الاستطلاع يتبارون فى الشكوى ، ويرجون الحكومة أن تركب أقفالا لصناديق التيار، هذا كلام ناس عجزة تعساء، ولو أن فى الناس هناك شيئا من الحزم لاجتمع نفر منهم مع العمدة أو رئيس الحى، واشتروا أقفالا وركبوها على كل الصناديق ، والمفاتيح تحفظ عند العمدة أو أى رئيس فى البلد، ولكننا أصبحنا فى الزمن الأخير محترفين للخيبة، وضاع منا ذكاؤنا وحزمنا ، ولم نعد نحسن إلا الشكوى ، وكل واحد منا يشكو الآخرين.

إن السبب الأكبر فى هذه الكارثة القومية هـو أن الجـهاز الحكومـى عندنا تالف ولا ينفع ، وموظف الحكومـة أصبـح أداة غـير نافعـة مـن طـراز إبراهيـم أفنـدى حسـن الخشـاب ، ولكننـا نحسـب أن عـلاج التعاسة هو المال ، فدخلنا فى سباق مجنون وراء المال ، والمـال قيمتـه تهبط يوما بعد يوم ، ولابد أن نجرى أكثر وأكثر ، وننهب أكثر وأكـثر ، وفى سـباق المـال وضعـف الضمـير أصبحنـا جميعـا سـواء ، العـامل المهنى والبياع والطبيب وأستاذ الجامعة ، والحكومـة تريـد أن ترضـى الجميـع ، والنتيجـة أنـها لا ترضـى أحـدا ، والمـدارس والمعـاهد والجامعات أصبحت معامل تعاسة ومتاعب ، ولكنا مع الأسف الشديد أصبحنـا صنـاع المتـاعب وغرقاهـا ، لأن الحـزم ضـاع. والذمـة خفـت صوتها ، وصوت تيار المال الحرام أصبح أعلى من هدير تدفق المياه فى شلالات نياجارا.